

شهاب الدين القلقشندي دراسة في التراث الجغرافي العرب Shahabuddin Al-Qalqashandi Study in the Arab Geographical Heritage

م.م رزاق حسين هاشم العميدي
المديرية العامة للتربية في محافظة النجف الأشرف

المستخلص:

لا يخفى على كل متتبع من أن العرب وخاصة المسلمون ساهموا في ردف الحضارة والحركة العلمية مساهمة فعالة في مختلف الأصعدة والميادين وفي مختلف الأوقات حيث توجد بصماتهم في كل فرع من فروع العلم والمعرفة العلمية، ومن هذه العلوم التي شمر بها العرب عن سواعدهم هي العلوم والمعارف الجغرافية. كانت الموسوعات العلمية سمه القرن الثامن الهجري في جميع حقول المعرفة. فكتب الموسوعات كانت تشمل معلومات جغرافية وصفية عامة لا يحكمها ضابط جغرافي معين، ومن هذه الموسوعات هو كتاب صبح الاعشى في كتابة الانشا للقلقشندي، وهو موسوعة كبيرة تضم مختلف فروع المعرفة ومنها الجغرافية، احتلت مادة الجغرافية المقالة الثانية من الموسوعة التي تتكون من عشرة مقالات وتحت عنوان (الممالك والممالك) ويقسم القلقشندي هذه المقالة الى أربعة أبواب هي:-
الباب الأول: في ذكر الارض على سبيل الاجمال.
الباب الثاني: في ذكر الخلافة ومن وليها من الخلفاء ومقراتهم.
الباب الثالث: في ذكر الديار المصرية.
الباب الرابع: في ذكر الممالك والبلدان المحيطة بمملكة الديار المصرية.

Summary:

It is no secret to every follower that the Arabs, especially the Muslims, have contributed to the extension of civilization and the scientific movement in various fields and fields at different times. .

The scientific encyclopedias were the eighth century AH in all fields of knowledge. The books of the encyclopedias included general descriptive geographical information that is not governed by a particular geographic officer. One of these encyclopedias is the book Sobh al-A'shah in the writing of Al-Ansha al-Qalqashandi, which is a large encyclopedia that includes various branches of knowledge, including geography. The article of geography is the second article of the encyclopedia, which consists of ten articles under the title "Tracts and Kingdoms." Al-Qalqashandi divides this article into four sections:

Chapter One: In mentioning the land as a whole.

Chapter Two: In mentioning the caliphate and its caliphs and their headquarters.

The third part: in mentioning the Egyptian houses.

Chapter 4: The mention of the Mamluks and the countries surrounding the Kingdom of the Egyptian Diyar.

المبحث الاول:

اولا: المقدمة:

لا يخفى على كل متتبع من أن العرب وخاصة المسلمون ساهموا في ردف الحضارة والحركة العلمية مساهمة فعالة في مختلف الأصعدة والميادين وفي مختلف الأوقات حيث توجد بصماتهم في كل فرع من فروع العلم والمعرفة العلمية. ساعدهم في ذلك ما توصلت اليه الحضارة القديمة الإغريقية واليونانية ومن قبلها حضارة وادي الرافدين ووادي النيل، وحث الدين الإسلامي على طلب العلم والمعرفة، حيث أصبحوا حلقة الوصل بين ما توصل اليه العالم في تلك الفترة وبين ما توصل اليه الإنسان في الحضارة الأوربية الحديثة، والتي جاءت بعدهم واستفادت من نتاجاتهم العلمية الغزيرة.

ومن هذه العلوم التي شمر بها العرب عن سواعدهم هي العلوم والمعارف الجغرافية، ولقد حظى التراث الجغرافي العربي بدراسات عامه وأبحاث خاصة ليست بالقليلة، ابتداء من المصنف الكلاسيكي للمستشرق الفرنسي رينو، وفي بداية القرن العشرين نما هذا المجهود بشكل ملحوظ بفعل الأبحاث المتميزة لبارتولد ومنيورسكي وكراموس وروسكا وفيزان وغيرهم من كبار المتخصصين في ميدان الجغرافية التاريخية عند العرب، غير ان مصنف كراتشكوفسكي يمثل مكانة ممتازة بين جميع هذه المؤلفات الذي ذكر فيه (لا يقتصر محيط الأدب الجغرافي العربي على البلاد العربية وحدها بل يمدنا بمعلومات من الدرجة الأولى عن جميع البلاد التي بلغها العرب والتي تجمعت لديهم معلومات عنها وذلك بنفس الصورة المنوعة التي وصفوا بها البلاد الإسلامية، وقد يحدث أحيانا أن تمثل المادة الجغرافية العربية أما المصدر الوحيد أو الأهم لتاريخ حقبة معينة لدولة ما) [1ص16].

كانت الموسوعات العلمية سمه القرن الثامن الهجري في جميع حقول المعرفة [2ص12]، فكتب الموسوعات كانت تشمل معلومات جغرافية وصفية عامة لا يحكمها ضابط جغرافي معين فقد تغلب عليها المعلومات التاريخية أحيانا والقصاص الأدبية والحكايات طورا، كما أنها تسهب في الحديث عن بلد معين بينما توجز الحديث عن بلد آخر، وعلى أية حال فإن الطابع العام الذي يميزها أنها عبارة عن (تجميع للمعلومات) ذات الصفة الجغرافية العامة [3ص51].

ومن هذه الموسوعات هو كتاب صبح الاعشى في كتابة الانشا للقلقشندي وهي موسوعة كبيرة تضم مختلف فروع المعرفة أشغل فيها ما يقارب العشرون عاما قدم فيها وصفا لنواحي مصر وبلاد الشام والبلدان التي لها علاقة بمصر مما يجعلها مصدرا تاريخيا كبيرا. وسوف نتناول في هذا البحث هذه الموسوعة المهمة والغزيرة بمعلوماتها العلمية ونسلط الضوء على ابرز ما كتب فيها القلقشندي في المادة الجغرافية ومحاولة نقدها نقدا علميا.

ثانيا: الاطار النظري.

1- مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في السؤال التالي (هل لشهاب الدين احمد بن علي القلقشندي دوراً في الفكر الجغرافي العربي؟ وما هو ذلك الدور؟ وما هي الملاحظات عليه؟)

2- فرضية البحث:

ان فرضية البحث تتمثل في ان لشهاب الدين احمد بن علي القلقشندي له دوراً في الفكر والتراث الجغرافي العربي، من خلال كتابة (صبح الاعشى في كتابة الانشا) وما تناول فيه من موضوعات جغرافية متعددة.

3- هدف البحث:

يهدف البحث الى الكشف عن دور العلماء العرب في العصور الوسطى او ما تسمى بالفترة المظلمة، في الفكر الجغرافي والاثار التي خلفوها في هذا المجال، وتسلط الأضواء عليها لما فيها من أهمية جغرافية كبيرة.

ثالثاً: شخصية القلقشندي:

هو شهاب الدين ابو العباس احمد بن علي الفزاري القلقشندي، وقد ذكر كراتشكوفسكي في كتابة تاريخ الأدب الجغرافي العربي انه لا يوجد اتفاق تام بين المصادر العربية في ما يتعلق باسمه والخط بينه وبين ابنه الذي كان من رجالات الأدب أيضا [1ص416].

ولد القلقشندي سنة 756هج/1355م وتوفي سنة 821هج/1418م. في محله صغيرة قرب قلوب بمصر الا انه من اصل عربي صرف فهو ينتمي إلى قبيلة فزارة وهي بطن من ذبيان من غطفان من قحطان وكانت منازلهم في نجد قبل مصر. وقد تلقى العلوم في مدينة الإسكندرية واصبح منذ عام 778هج/1376م مدرسا للحديث والفقه، غير ان ميوله الشخصية ذهبت الى اتجاهات أخرى فقد اهتم اهتماما بالغا بنسب القبائل العربية وله مصنف في هذا الصدد لقي انتشارا واسعا عند القراء العرب فأكملة وزاد عليه في القرن التاسع عشر العلامة العراقي السويدي. ولم يكن القلقشندي جغرافيا ولا هو من ادعى ذلك، وإنما هو مؤلف متنور يرى في الجغرافية أداة ضرورية لتكوين الكاتب المثالي [4ص85]. نشأ القلقشندي في دار علم وأدب وما ان صلب عوده حتى توجه نحو شط الإسكندرية لينهل من العلم على يد أكابر العلماء في ذلك العصر ثم التحق بديوان الإنشاء الذي كان يرأسه بدر الدين أحد أقرباء العمري (صاحب موسوعة مسالك الأبصار) وبقي يعمل بالديوان حتى وفاته حيث يكون عمره عند وفاته 65 عام. وقد عاصر القلقشندي علماء مشهورين مثل ابن خلدون وكانت بينهم منزلة عالية، كما شهد القلقشندي أيضا زحف التتار الى الشام بقيادة تيمور لئلك [5ص13].

كان القلقشندي اسما معروفا في ميدان التأليف التاريخي بمصر الإسلامية بل وفي العالم الإسلامي بأجمعه لذلك العصر، والى جانب معرفة العرب الحيدة به فقد عرفه جيدا أيضا العلماء الأوربيون منذ القرن التاسع عشر، الا انه لم يكن من المستطاع إعطاء فكرة عن مجهوده العلمي بصورة شاملة الا بعد ظهور كتابه في طبعة مرضيه تشمل أربعة عشر جزءا وذلك للفترة بين عامي 1913 و 1920 ويرجع الفضل في ظهور هذه الطبعة الى مجهود ذلك العلامة المصري الذي لم يعرف الكل الى نفسه سبيلا وهو احمد زكي باشا، وثمة دراسة اخرى هامة لهذا الكتاب تستند على تلك الطبعة هو البحث الخاص الذي قام به بيوركمان عن مصنف

القلقشندي، الذي قدم لنا أساساً متيناً لتحليل المصنف من كافة نواحيه، وذلك في دراسة لم تتمتع بها أي موسوعة أخرى من موسوعات عهد المماليك.

رابعاً: مؤلفاته:

- 1- كان لشهاب الدين القلقشندي عدد من المؤلفات في مواضيع مختلفة ومنها:-
- 1- نهاية الارب في معرفة انساب عرب، قام بتحقيقه والتعليق عليه علي الخاقاني 1958.
- 2- قلائد الجمان في التعريف بقبائل العرب الزمان، توجد نسخة خطية منه في دار الكتب المصرية.
- 3- حلية الفضل وزينة الكرم في المفاخرة بين السيف والقلم، نسخة خطية منه في دار الكتب المصرية.
- 4- الغيوث الهوامع في شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع، في فقه الشافعي.
- 5- ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر، وهو مختصر لكتابه الكبير صبح الاعشى.
- 6- وله مؤلفات أخرى على شكل رسائل صغيرة منها: شرح لكتاب الحاوي الصغير في الفروع للقزويني، وشرح لقصيدة بانة سعاد لكعب بن زهير اسماه (كنه المراد في شرح بانة سعاد)، وله مقامة في تقريظ القاضي بدر الدين بن فضل الله أسماها (الكواكب الدرية في المناقب البدرية).
- 7- كتاب صبح الاعشى في صناعة الإنشاء، وهي موسوعة كبرى في مختلف فروع المعرفة، اشتغل القلقشندي في تأليفها ما يقارب عشرون عاماً، حتى بلغت اربع عشر جزء مقسم الى عشرة مقالات في عام 814هـ/1412م وظل يزيد عليها حتى وفاته، طبع منها ثلاثة أجزاء عام 1913 في كلية أكسفورد. ونشرت هذه الأجزاء الثلاثة في مجلد واحد بدار الكتب المصرية ببولاق عام 1323هـ، ثم قامت بطبعة بعد ذلك دار الكتب المصرية كاملاً [5ص14].

المبحث الثاني:

أولاً: التعريف بكتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشاء.

لقد اهتم بدراسة (صبح الأعشى) الكثير من المستشرقين. فنشر الأستاذ سوفيير في مرسيليا عام 1887 (ملخصات من كتاب صبح الأعشى). ونشر فيستنفالد (جغرافية مصر للقلقشندي) في جوتنجن (مدينة في ألمانيا) عام 1879. وكتب الأستاذ مارتن هارتمان بحثاً عن (الفصول المتعلقة بالجغرافية الإدارية من صبح الأعشى) عام 1916. وكتب كانار عن (الصلات السياسية بين بيزنطة ومصر في صبح الأعشى) عام 1935 [6ص362].

ان موسوعة القلقشندي تعتمد اعتماداً كبيراً على مصنفي العمري وهما (التعريف بالمصطلح الشريف، ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار) ولكنها تميزت بدقة التبويب وبأن غرضها الأساسي هو ان تكون مرجعاً من اجل كتاب الدواوين أي عمال ديوان الإنشاء، وفيها يلخص المؤلف جميع المعارف التي يحتاجها الباحث المثالي ابتداء من التوجهات الفنية بالكلام عن المداد والقلم والورق والخط والى المعلومات الواسعة في محيط الجغرافية والتاريخ والأدب والبلاغة، وهو يقدم وصفا لنواحي مصر والشام بل ولجميع الدول التي لها علاقة بمصر مولياً اهتماماً خاصاً لنظامها السياسي والإداري والأساليب والمعاملات بين السكان، فلا يكتفي القلقشندي بإيرادها في صيغتها الكتابية الخاصة فحسب بل يسوق نماذج من الوثائق الاصلية الموجودة (المحفوظات)، مما يجعل الكتاب مصدراً أساسياً بالنسبة للتاريخ والإدارة والحياة الاجتماعية للعالم الإسلامي والبلدان المتصلة به في أوائل القرن الخامس عشر) [5ص16].

تنقسم الموسوعة من حيث التبويب الى عشرة اقسام كبيرة في هيئة مقالات غير متساوية الحجم ولا تتفق مع تقسيم المصنف الى أجزاء، ويوجد بالمقدمة تحليل دقيق لمهنة الكتابة وفضلها على المجتمع البشري. وفي المقالة الأولى من الكتاب (الأجزاء من الاول الى الثالث) يتناول المؤلف ما يحتاجه الكاتب من المعرفة في الخط واللغة والنحو والبلاغة ومختلف العلوم ذات الفائدة العلمية بالنسبة له، ويفرد القلقشندي المقالة الثانية (الأجزاء من الثالث الى الخامس) للمعلومات الجغرافية والتاريخية وهي المهمة بالنسبة للبحث، اما المقالة الثالثة (الجزآن الخامس والسادس) فيعالج الكاتب فيهما المسائل العامة التي تشترك فيها كل المكاتب والولايات ويبحث في الاسماء والكنى والألقاب، وفي المقالة الرابعة (الأجزاء من السادس الى التاسع) تناول القلقشندي المكاتب وأنواعها مع إيراد عدد من الوثائق الرسمية برمتها وتمثل هذه الوثائق عنصراً جوهرياً مهما لهذا المصنف، اما المقالة الخامسة (الأجزاء من التاسع الى الثاني عشر) فيقدم لنا فيها بعض المعلومات النظرية ونماذج للولايات والعهود والبعثات وطريقة تفويضها، وهي لها أهمية كبيرة لأنها تلقي الضوء على النظام الأدري المعقد الذي ساد في عهد المماليك، اما بقيه المقالات فأنها صغيرة الحجم مقارنة بسابقاتها، فالمقالة السادسة (الجزء الثالث عشر) يقدم صورة للمكاتب التي لا تخضع للتصنيف، والمقالة السابعة (نفس الجزء) الوثائق المتعلقة بالأقطاعات، اما المقالة الثامنة (نفس الجزء أيضاً) فيبحث بالايان وصور الاقسام المختلفة واليمين، بينما تحدثت المقالة التاسعة (الجزآن الثالث عشر والرابع عشر) عن عقود الصلح والفسوخ والهدنه بين المسلمين والكفار، وتناولت المقالة العاشرة والأخيرة (الجزء الرابع عشر) فنونا من الكتابة تختلف باختلاف الظروف الداعية لها، اما الخاتمة فتحتوي على أبواب تبحث اساساً في وسائل النقل والمواصلات وفيها يرد الكلام عن البريد العادي وبريد الحمام ونقل الثلج من الشام الى مصر على ظهور الجمال وعلى السفن. وليس من العسير ان نرى في هذا التبويب اقتفاء القلقشندي لأثر كتاب (التعريف) للعمري بل انه يطبق في بعض الاحيان ترتيبه وتبويبه بحذافيره [1ص418].

اما المصادر التي اعتمد عليها في تأليف كتابه فهي كثيرة جدا منها كتاب الأم للشافعي والملل والنحل للشهرستاني وقوانين الدواوين لأبن ممتي والبيان والتبيين للجاحظ وعجائب المخلوقات للقرظيني وغيرها من أمهات الكتب [5ص17].

ثانيا: الجغرافية في كتاب صبح الأعشى:

نلتقي على طول هذا الكتاب بمعلومات جغرافية متنوعة وتختلف باختلاف الموضوعات التي يتناولها البحث. الا انه افرد للجغرافية المقالة الثانية من الموسوعة. وسنتناول ذلك بالنقاط التالية:-

1- احتلت مادة الجغرافية المقالة الثانية من الموسوعة، التي تتكون من عشرة مقالات وتحت عنوان (الممالك والممالك) ويقسم القلقشندي هذه المقالة الى أربعة أبواب هي:-
الباب الأول: في ذكر الارض على سبيل الاجمال.
الباب الثاني: في ذكر الخلافة ومن وليها من الخلفاء ومقراتهم.
الباب الثالث: في ذكر الديار المصرية.
الباب الرابع: في ذكر الممالك والبلدان المحيطة بمملكة الديار المصرية.

الواقع ان هذا المنهج الذي أختاره القلقشندي لمقالته منهج سليم الى حد بعيد من وجهة النظر الجغرافية فهو يبدأ بالصورة العامة للأرض وما اشتملت عليه من الاقاليم الطبيعية في الباب الاول. ثم يخصص الباب الثاني من المقالة لذكر الخلافة ومن وليها من الخلفاء وفي هذا انما يتحدث القلقشندي عن الجغرافية السياسية للدولة الإسلامية وكيف نشأة هذه المرحلة وكيف اتسعت، وبعد رسم الخريطة الجغرافية للدولة الإسلامية، افرد القلقشندي بابا لجغرافية مصر وكانت مادة الباب الثالث من مقالته (الممالك والممالك) ويعد هذا الباب من اهم أقسام صبح الأعشى وهو يبدأ بذكر فضائل مصر ومحاسنها على عادة الكتاب في عصره والعصور التي سبقته مبتدأ بنهر النيل صانع الحياة فيتحدث فيضاناته والمقاييس المقامة عليه والخلاجان المتفرعة منه والجسور الحامية لمياهه، ووصف الاراضي المصرية واقسامها الإدارية فهو يعطي صورة حيه لجغرافية البلاد الاقتصادية في عصر الأيوبيين والمماليك، وبعد ان وفي الرجل بحق وطنه مصر، انتقل الى وطنه الإسلامي الكبير في الباب الرابع بادئا بالديار الشامية التي تتاخم حدود وطنه الاول فيتحدث عنها واما يتصل بها من بلاد الجزيرة الفراتية وبلاد الثغور والعواصم وهي التي تعرف بأرمينيا، ومنهجها في هذا الحديث هو نفس المنهج الذي سار عليه في وصف مصر فهو دقيق الملاحظة حريص على المقارنة ان دعت الحاجة، فهو يقول على نهر العاصي سمي بهذا الاسم لأنه لا يسقي الارض الا بطريقة السواقي (بواسطة) على عكس نهر النيل فإنه يفيض بمائة فيملاً الأحواض [4ص88].

يتطرق القلقشندي بعد ذلك الى بلاد الحجاز إذ كانت في ذلك العصر لاتزال في دائرة النفوذ المصري، ويتحدث ايضا عن المماليك في جهة الشرق الى بيت جنكيزخان أي الارضي الإمبراطورية المغولية، ويقسمها الى مملكتين هما مملكة ايران وتحتوي على ستة اقاليم، والمملكة الثانية مملكة توران وتحتوي على ثلاثة اقاليم، وينتقل القلقشندي الى الديار التي تقع الى الغرب من مصر وشمالها وهي مملكة تونس ومملكة فاس وجزيرة الاندلس وما بقي منها بيد المسلمين وما استعادته منها اوربا المسيحية. ويذهب القلقشندي الى وصف الجزر الشمالية الواقعة في البحر المتوسط ومنها قبرص ورودس واقريطش (كريت) حاليا وصقلية وينتقل الى الألمان والبنادقة (إيطاليا) حاليا ويصف بلاد الروم (اسيا الصغرى)، وهو ينقل في هذا كله عن (هورشوش) مؤرخ الروم، وهذه هي المرة الوحيدة في المقالة الجغرافية التي يشر فيها الى مصدر غير عربي.
كان القلقشندي أمينا في كل منقولاته فينسبها الى اصحابها ولا يدعي منها شئ لنفسه وهو عادة يذكر الكتب مقرونة بأسماء اصحابها ولكنة قد يخرج من هذه القاعدة احيانا فيذكر اسم الكتاب فقط او اسم مؤلفه فقط، ولربما بسبب شهرة هذه الاسماء [4ص90].

نجد ايضا الى جانب المدرسة الوصفية التي تميزت بها المقالة الثانية (الممالك والممالك)، المدرسة الرياضية ولكن هنا اهتمامه بها محدود فهو يكتب لفئة خاصة من القراء وليس هناك ما يدعو الى أنقالمهم بالأرقام، وفي هذا الجانب كان القلقشندي ينقل عن نظريات بطليموس في الجغرافية الكونية. ومن الواضح ان قيمة هذا القسم الجغرافي من الموسوعة شأنه شأن بقية الموسوعة (صبح الأعشى في صناعة الانشا) هو اعتماده على المصادر التي يستعملها القلقشندي اكثر من اعتماده على طريقة التبويب للمادة، فأن هذا المصنف يمثل قبل كل شئ مصنفًا نقليا الا انه يضم مادة ضخمة جديدة بكل ما يليق بها من تقدير، فهو بهذا يعد الى حد ما مصنفًا فريدا من نوعه [1ص419].

2- اهتمام القلقشندي بدراسة الأسماء الجغرافية وتعليقها:

وهذا من اهتمامات الجغرافية الحديثة لدى الأوربيين في الوقت الحاضر، فيقول في تسمية مصر مثلاً، هي نسبتاً الى (نقراوس بن مصر) اول ملوكها قبل الطوفان، وسماها باسم أبيه، او نسبتاً الى (مصر بن حام بن نوح)، او لمصير الناس اليها، ولكنه يرجح تسميتها بمصر لكونها حداً فاصلاً بين الشرق والغرب فمعنى مصورها أي حدودها. اما الشام فقد اختلف في سبب تسميتها شاماً فيقول نسبتاً لسام بن نوح لأنه اول من نزلها، او لان أرضها مختلفة الالوان بالحمرة والسواد والبياض فهي شاماً لذلك، او لانها واقعة شمال الكعبة. اما بالنسبة الى تسميات الجهات الاربع فيقول القلقشندي ان الاصل في هذه التسميات هو المشرق لأن منه بداية حركة الفلك، فالمشرق لشروق الشمس، والغرب لغروبها، اما الشمال فهي الجهة التي اذا استقبلنا الشرق كانت على شمالنا، اما جهة الجنوب فهي الجهة التي اذا استقبلنا الشرق كانت على جانبنا الأيمن ولم تسمى باليمين مقابلة بالشمال فاستعيضت بالجنوب.

3- شكل الارض وتقاسيمها:

يذكر الفلقشندي انه قد تقرر في علم الهيئة (الفلك) بأن الارض كروية الشكل وهي مسطحة، وهو الذي عليه اغلب الجغرافيين العرب وقيل كالترس وقيل كالطبل، وان خط الاستواء يقسم الارض الى قسمين شمالي وجنوبي وأن هناك خط اخر يقسمها الى نصفين شرقي وآخر غربي ويسمى (خط نصف النهار) وهو يشير بذلك الى خطوط الطول ودوائر العرض، ثم يذكر بعد ذلك ان ما بعد عن خط الاستواء المقدم ذكره يُعبر عنه بالعرض فإن كان في جهة الجنوب فالعرض جنوبي وإن كان في جهة الشمال فالعرض شمالي. ويقصد الفلقشندي هنا خطوط العرض الجنوبية وخطوط العرض الشمالية. اما ما يسمى في الجغرافية بخط الطول الرئيسي، فقد ابتدأه القدماء بجزر الخالدات، والتي هي في المحيط الأطلسي بجوار الساحل المغربي (جزر الكناري) ومنهم من ابتدأه بالساحل المغربي نفسه، والذي على أساسه يحسب الزمن.

كما يذكر الفلقشندي ان النصف الشمالي اكثر عمارة من النصف الجنوبي ويتركز المعمور في النصف الجنوبي بالقرب من خط الاستواء في بعض بلاد الزنج والحيشة، ويمتد المعمور في النصف الشمالي بين خط الاستواء والدائرة القطبية الشمالية (66.5° شمالاً)، ثم يسرد بعد ذلك الكلام عن الأقاليم السبعة للأرض وهي التقاسيم المثبتة لدى الجغرافيين أذاك وبتحديد خطوط الطول ودوائر العرض لكل إقليم [5ص20].

4- عناصر المناخ عند الفلقشندي:

يبين الفلقشندي رأيه في تأثير البيئة الجغرافية (وخاصة المناخ) على السكان فيقول (إن هواء كل بلد يؤثر في أهله بحسب ما يقتضيه الهواء، ولذلك تجد لأهل كل بلد صفات وأحوال تخصهم). وهو يتفق في ذلك مع أبين خلدون في مقدمته في تأثير الهواء على اللوان البشر والكثير من أحوالهم وحتى أخلاقهم. ويتطرق اولاً الى الرياح حيث يقول انها كلمة مؤنثة وان لفظ الريح لم يأت في القرآن الا في الشر (ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر)، وان لفظ الرياح لم يأت في القرآن الا في الخير (الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته)، اما سبب حدوث الرياح فيذكر الفلقشندي انه (دخان يرتفع من الارض فيضر به البرد في ارتفاعه فينعكس ويتحامل على الهواء، ويحرك الهواء بشدة فيحصل الريح) ولعله يريد بأن ارتفاع درجات الحرارة يؤدي الى تمدد الهواء وصعوده الى الاعلى على شكل تيارات تشبه عمود الدخان وبالارتفاع تنخفض درجة حرارته فيهبط مرة ثانية، وهذا ما يسمى بالتيارات الهوائية الصاعدة والهابطة. اما عن انواع الرياح فيقول ان الرياح عند العرب أربع هي (الصبا والدبور والشمال والجنوب) فالصبا هي التي تأتي من المشرق وتسمى ايضا القبول لطبيها فتقبلها النفوس، اما الدبور فمهبها من الغرب وسميت دبوراً لأن مستقبل الشرق يستديرها، واما الشمال ومهبها من القطب الشمالي وسميت شمالاً لان مهبها من شمال من استقبال الشرق، اما الجنوب فهي من القطب الاسفل وتسمى الريح اليمانية كذلك، لان مهبها مما يلي اليمن.

يتطرق الفلقشندي الى السحاب بعد الرياح ويعرفها بانها اجرام تحمل المطر بين السماء والارض، وان اول ما ينشأ من السحاب هو (النشئ) فإذا انسحب في الهواء فهو (السحاب) واذا تغيرت له السماء فهو (غمام) واذا نشأ في عرض السماء فلا تبصره ولكن تسمع رعدة فهو (العقر) فإذا أظلمت السماء فهو (العارض)، اما (المخيلة) فهي السحابة التي يظن فيها المطر، واذا كان السحاب ابيض فهو (المزن) فإذا هراق ما فيه قيل (جهام). وان هذا الذي ذكره الفلقشندي في السحاب هو جزء مما ذكره الثعالبي. ينقل الفلقشندي الى الرعد بعد السحاب فيقول ان الرعد حدث هائل يسمع من السحاب، ويكتفي بذلك، ثم يروي بعض معتقدات العامة حوله، حيث قيل انه صوت احد الملائكة وقيل انه صوت الامام علي^(ع) وقيل انه دخان يتصاعد من الارض فيبرد وبحركته ينتج صوتاً شديداً يطلق عليه الرعد. اما كلامه عن البرق فيقول الفلقشندي بأنه ضوء يرى من جوانب السحاب ويسرد كذلك بعض معتقدات العامة من انه يمثل ضحك ذلك الملك الذي يزجر السماء والسحاب، وينقل ايضا عن بعض العلماء قولهم ان البرق ناتج عن احتكاك الهواء بالدخان.

يأتي بعد ذلك الفلقشندي على ذكر المطر وكيف يتصاعد من الارض على شكل بخار نتيجة للحرارة فإذا ما وصل الى طبقات الجو العليا الباردة تكاثف وصار ماء فينزل الى الارض، ويكثر المطر في فصول ويقل في فصول اخرى، وقد رتب العرب نزول المطر الى أنواع النجوم التي هي منازل القمر وجعلوا لكل منها نوء ينسب اليه وعددها (28) نوء. اما ترتيب المطر فقد اورد الفلقشندي ما ذكره ابن قتيبة في ان اول المطر الوسمي فالربيع ثم الصيف ثم الحميم. ويلاحظ ان الفلقشندي قد ترك الفصل الخاص بأسماء المطر و أوصافه في فقه اللغة للثعالبي ولم يشر اليه مع انه ذو فائدة كبيرة.

يذكر بعد ذلك الفلقشندي ان الثلج ينزل كالقطن المندوف على أعالي الجبال وتذهب حرارة الشمس منه، اما في المناطق الباردة فيبقى الثلج على قمم الجبال طوال ايام السنة، وان سبب تكون الثلج فإنه ينقل ما ذكره العلماء انه بخار يتصاعد من الارض الى طبقات الجو العليا فيتكاثف الى صورة ثلج نتيجة لانخفاض درجات الحرارة، اما البرد (الحالوب) فيقول الفلقشندي انه لا يقع الا بالخريف والربيع وسببه انه بخار يتصاعد من الارض ويرتفع في الهواء فلا تدرکه البرودة حتى يتجمع على شكل قطرات مائية، ثم تدرکه الحرارة من جوانبه فتتهزم البرودة الى مواطنها فتتجمد برداً (أي تتجمد) ويظهر من كلام الفلقشندي انه هناك فرقا في درجات الحرارة بين السحابة والوسط المحيط بها، ولكنه يذكره بالعكس فمن الناحية العلمية تكون السحابة اسخن مما حولها، بينما يقول الفلقشندي ان وسط السحابة اسخن من السحابة نفسها، وهذا خلاف التفسير العلمي لتكوين البرد. ويذكر أيضا اسماء البرد منها حب الغمام، وحب المزن، وحب قر.

5- الظواهر الضوئية (القوس قزح و الهالة):

يقترّب القلقشندي ظاهرة القوس قزح من التفسير العلمي لها، وهو ان هذه الظواهر التي تشاهد حول الشمس او القمر في السحب التي تتكون من بلورات الثلج، ناتجة عن انكسار الضوء في بلورات ثلجية ذات الاشكال المنشورية السداسية التي تطفو في الهواء، ويقول ايضا ان القزح هو اسم من اسماء الشيطان ولذلك يجب ان نقول قوس الله لا قوس قزح. اما الهالة وهي الدائرة التي حول القمر فإنه استعرض ما قاله العلماء في سبب تشكيلها وهو ان الهواء المتوسط بين البصر والقمر صقيل ورطب فيرى القمر في جزء منه وهو الجزء الذي لو كان فيه مرآة لروئي القمر فيها، فترى حينئذ دائرة [7ص46].

6- اختلاف طبائع الفصول:

يقول القلقشندي ان اختلاف طبائع الفصول ناجم عن حركة الشمس وتنقلها في نقط المنقلابين و الاعتدالين، فأنها اذا تحركت من الحمل وهو أول البروج الشمالية أخذ الهواء بالسخونة الى ان تصل الى أول السرطان وحينئذ يشتد الحر في السرطان والأسد الى ان تصل الى الميزان، فحينئذ يطيب الهواء ويعتدل ثم يأخذ الهواء بالبرودة ويتواتر الى اول الجدي، وحينئذ يشتد البرد في الجدي والدلو لبعده الشمس عن سمت الرؤوس الى ان تصل الى الحمل فتعود الشمس الى أول حركتها [7ص46].

اما طبائع تلك الفصول، فيذكر القلقشندي ان فصل الربيع (وهو اول الفصول عند العرب) يتميز بحرارته ورطوبته لهبوب ريح الجنوب، مما يؤدي الى ذوبان الثلوج في أيامه، وان العرب تسمي المطر الذي ينزل في الخريف ربيعا. اما الصيف فيتميز بحرارته وجفافه (بيوسته)، وتهب فيه رياح الصبا، وللعرب في هذا الفصل وغرات، وتسمى الرياح التي في هذه الوغرات (بوراح) وهي الشمالية الحارة التي تأتي في الصيف. أما الخريف فيتميز ببروده وجفافه هوائه وتهب فيه الرياح الشمالية، والخريف عند العرب هو المطر الذي يأتي في اخر القيظ ولا يكادون يجعلونه اسما للزمان. وأما الشتاء فهو بارد رطب، تهب فيه ريح الدبور، وهي اقل الرياح هبوبا وتسمى الريح العقيم، لأنها لا تستدر السحاب ولا تلقح الشجر، ويقال للمطر الذي يسقط في أيامه (الشتى) [4ص29].

ثالثاً: الاستنتاجات.

- يمكن ملاحظة بعض الامور وتشخيصها في ما أورده شهاب الدين احمد بن علي القلقشندي في كتابه صبح الاعشى في كتابة الانشا وتحديدأ في في مقالته الثانية التي خصصها لموضوعات الجغرافية وهي كالآتي:
- 1- ولم يكن القلقشندي جغرافيا ولا هو من ادعى ذلك، وإنما هو مؤلف متنور يرى في الجغرافية أداة ضرورية لتكوين الكاتب المثالي
 - 2- انه نادراً ما يأتي في مواضيع تخص الجغرافية وإنما كان في الاغلب ينقل عن غيره من العلماء، الا في ما يخص وصف مصر كونه أحد أبنائها. وكان القلقشندي أميناً في كل منقولاته فينسبها الى أصحابها ولا يدعي منها شيئاً لنفسه.
 - 3- عدم الموضوعية في تناوله الخصائص الجغرافية ففي حالة وصفه للمناخ فإنه يأتي عابراً وضائعاً بين الصفات الاخرى ككلامه عن مصر فيقول (أعظم الاقاليم خطراً وأجلها قدراً وأحسنها ثماراً وأعدلها هواءً) فجاءت هنا الصفات المناخية مشتركة مع باقي الصفات الأخرى.
 - 4- يركز القلقشندي على بعض الإمكان ويصفها ويزيد في شرحه لها، بينما يهمل اماكن أخرى بدون توصيف او شرح.
 - 5- يستعمل القلقشندي بعض المصطلحات التي تعبر عن بعض الخصائص الجغرافية، مثل (الهواء الصحيح) للهواء المعتدل، (التربة الصحيحة) للتربة الخصبة، (الهواء اليابس) للرياح الجافة، (الوخامة) للرطوبة.
 - 6- يبين القلقشندي رأيه في تأثير البيئة الجغرافية (وخاصة المناخ) على السكان فيقول (ان هواء كل بلد يؤثر في أهله بحسب ما يقتضيه الهواء، ولذلك تجد لأهل كل بلد صفات وأحوال تخصهم). وهو يتفق في ذلك مع ابن خلدون في مقدمته في تأثير الهواء على الوان البشر والكثير من احوالهم وحتى أخلاقهم.
 - 7- يذكر القلقشندي عند تعرضه الى بعض الاماكن، مواقعها بالنسبة الى دوائر العرض وخطوط الطول، وقد لا يذكرها في مناطق اخرى لعدم تمكنه من معرفتها، فيقول (لم يتحرر لي طولها وعرضها)، وهو يعتمد في ذلك على كتاب القانون المسعودي لأبي الريحان البيروني، وغيره من كتب البلدان والمسالك والممالك العربية الاخرى.
 - 8- يستخدم القلقشندي أسلوب المقارنة في بعض الأحيان وهو أسلوب علمي مفيد في البحث العلمي الجغرافي، فيذكر عن مدينة صنعاء انها (لها شبه بدمشق لكثرة مياهها وأشجارها، وتتقارب فيها ساعات الشتاء والصيف)، فهو يعقد مقارنة فالانتان من الناحية المناخية تتصفان باعتدال الهواء وقلة المدى الحراري بين الصيف والشتاء.

المصادر:

- 1- كراتشكوفسكي، تاريخ الادب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان، القاهرة، 1963.
- 2- شاكر خصباك، في الجغرافية العربية دراسة في التراث العربي، دار الحداد، بيروت، الطبعة الاولى، 1988.
- 3- شاكر خصباك، الجغرافية عند العرب، دار المعارف، تونس، بدون تاريخ.
- 4- محمد محمود الصياد، من الوجهة الجغرافية (دراسة في التراث العربي). دار الاحد، بيروت، 1971.
- 5- صباغ محمود محمد، دراسات في التراث الجغرافي العربي، دار الرشيد للنشر، 1981.
- 6- علي الخاقاني، نهاية الارب للقلقشندي. بغداد 1958.
- 7- علي حسن موسى، المناخ في التراث العربي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الاولى، 2001.